الوسط Alwasat يومية سياسية مستقلة
العدد 3775 الاثنين 7 يناير 2013 الموافق 25 صفر 1434هـ
Monday 7 January 2013, Issue No. 3775

هل مازال للطائفية من حظ في ربيعنا العربي؟

محمد عبدالله محمد
mohd.abdulla@alwasatnews.com

□ شَهِدَ العالَم، خلال ثلاثين سنة، حربيْن عالميتيْن طاحنتيْن. الأولى (1914 – 1918) تعاركت فيها أربع عشرة دولة. خسرت البشرية خلالها ثمانية ملايين ونصف المليون قتيل، وواحداً وعشرين مليون جريح، وسبعة ملايين مفقود. وفي الثانية (1939 – 1945) تحاربت فيها واحدٌ وثلاثون دولة. وخسرت البشرية فيها اثنين وستين مليون إنسان، ودُمِّر سبعون في المئة من البنية التحتية لأوروبا.

دققوا في تلك الأرقام. إنها مهولة بكل المقاييس. وإذا ما أضيف لها التقسيم السياسي الجديد للعالم، وانهيار دولة وقيام أخرى، سنعلم أن المسألة غاية في «الكارثية». وعلى رغم كل ذلك الدم المراق، فإن أوروبا اليوم، بها اتحاد سياسي واقتصادي!. أوروبا التي قدَّمت كلّ تلك الملايين من القتلى والجرحى والمشردين، هي اليوم تعيش فيما بينها شراكة حقيقية. وربما أصبحت تلك الذاكرة المزكومة، بمثابة التاريخ «الطارئ» على الأوروبيين، الذي به يتندرون على أحوال سابقة لا أكثر.

السؤال هنا: لماذا نسيت أوروبا (أو كادت أن تنسى) مأساتها في الحربيْن العالميتيْن، على رغم تلك الخسائر الفلكية، وأيضاً، على رغم قرب مأساتها «زمنياً» عن حاضرها اليوم، لكنها لم تنسَ بعد، المأساة، التي خلفتها الحروب الدينية على أرضها، خلال القرنين، الخامس عشر والسادس عشر، والتي اندلعت بين الأوروبيين، على رغم أن الفاصل التاريخي في هذه الحرب، هو أضعاف مضاعفة، لما يصل الحربيْن الكونيتيْن عن الحاضر الأوروبي؟ هذا سؤال جدير بأن يُناقَش ويُدرَس.

كيف أصبحت السياسة والاقتصاد والدفاع في المدرك الأوروبي، من الأمور المشتركة، ومن دون أدنى غضاضة، لكن بقِيَت الهوية الأوروبية، والحالة الثقافية فيها وحولها، تعاني حساسية التموضع، والحدود الفاصلة والحادة فيما بينها؟

إن الإجابة عن تلك التساؤلات تنبغي منها توسيع دائرة النظر والاحتمال. فالحروب الدينية الأوروبية ضربت أدق ما تملك تلك الشعوب، وهو الهوية، فتباعدت أنوية الناس والجماعات عن بعضها، ثم وبعد علاج أمرها بالكَي، ارتبطت، بالتساكن فيما بينها لا أكثر، ثم تأجَّل البَتُّ في أمر تعايشها حتى حين. الغريب، أن تلك الحروب، لم يقتصر أثرها على الوجدانيات والمشاعر، ودواخل الإنسان الأوروبي، أو الأميركي، بل امتد ليصل حتى إلى التوزيع الديموغرافي الهش، الذي يفصل الأقوام عن بعضها. ولنا في سويسرا وبريطانيا وهولندا وغيرها شواهد في ذلك.

فهذه الحرب، تختلف عن غيرها من الحروب إنها حرب تندفع من عروق رقاب البشر. وتدار سيوفها على أوتار حميَّة الروح، التي ترمي على وقع الانتماء الديني والمذهبي، الذي به يتجانس الناس على مشتركات تاريخية وحاضرة، يتسالم عليها الأقربون في الدم، فتصبح شرعيتها من شرعية الوجود، فيتداعى الناس إلى نصرة بعضهم بجنون الانتماء الفرعي، لا انتماء الأصل، الذي يُرجِع الناس إلى إنسانيتهم الأولى.

عندما نرجع إلى مسببات الحربيْن العالميتيْن الأولى والثانية، سنرى أن الحرب الأولى قد اشتعلت بعد اغتيال ولي عهد النمسا، الأرشيدوق فرانز فرديناند مع وزوجته في سراييفو، على يد طالب صربي متطرف. وفي الحرب الثانية، اشتعلت بسبب غزو ياباني لمنشوريا (1931) وإيطالي لأثيوبيا (1933) وألماني للنمسا ولتشيكوسلوفاكيا (1938) وإيطالي لألبانيا، ثم ضم بولندا إلى الرايخ الثالث الألماني، والذي فجَّر الصراع على أشده في العام 1939.

إذاً، فالموضوع فيه تغوُّلات واستفزازات عسكرية لدول، حقَّ لها أن تتصارع ثم تتصالح. لكن، لو رجعنا إلى مسببات الحروب الدينية، سنرى أنها عبارة عن «نقاشات دينية»، واجتهادات في الرسوم المسيحية، وبروز حركات الإصلاح الديني وليس شيئاً آخر، أدت إلى اندفاع المنتمين إلى انتمائهم والدفاع عنه بوحشية متناهية. لم يكن أصل الصراع قائماً على كولونياليات أوروبية فوق الأرض الأوروبية. لكن تلك الرسوم، والاتهامات بالتجديف الديني، جعل القارة تتقاتل فيما بينها لقرن وبضع سنين، ومات من أجل ذلك خلق كثير.

بالتأكيد، حصلت هناك مجازر دامية، حيث صُرِعَ أربعة ملايين فرنسي بين العام 1560 – 1598 وأعدِمَ ألفان من الأناباتيست. لكنها لا تساوي شيئاً أمام ضحايا حروب القرن الماضي؛ والسبب هو، أن مذاق الحروب الدينية، يختلف تماماً عن مذاق الحروب السياسية. الأولى يكون المقدس فيها حاضراً، والثانية تفرض المصلحة نفسها على المتحاربين.

ما أودُّ أن أقوله من كلِّ ذلك، هو أن نعِيَ نحن العرب والمسلمين خطورة ما كان، لكي لا نتورَّط في مثله. المنطقة اليوم، تشتعل على أوار نار طائفية خطيرة، تغذيها أنظمة وسياسات سوداء، يخيطون عتمتها في دوائر استخباراتية، لا نعلم أبوابها أين، سوى أنها في الغرب ومريديه، الذين صرَّحوا في غير مرة، أن منفعتهم هي حرب طائفية، بين الشيعة والسُّنة في الشرق الأوسط. هم يريدون لهويتنا أن تنفرط كما انفرطت هوية الأمم السابقة، فلا تقوم لنا قائمة.

أعداؤنا لن يخشوا شيئاً مادامت الحرب على أرضنا، والضحايا من أبنائنا، ووقودها من ثرواتنا، وموازنتها من أموالنا، ليبقوا هم منتظرون قطاف ثمرة ذلك الصراع. الغرب المسيحي، باع مسيحيي الشرق، بأبخس الأثمان، وهم ينتمون إليه في العقيدة ذاتها، ورآهم كيف يُهجَّرون ويُقتلون في العراق وسورية، من دون أن يقول أكثر من أنه صلى من أجلهم.

أيها العرب... هذه أرضكم، وناسها أبناؤكم. لا تقعوا فيما وَقَعَ فيه الأقدمون. امسحوا من داخلكم ما يدفعكم لكره أخوتكم، الذين يبتغون الهدف ذاته الذي لديكم. ارجعوا إلى أصل منبتكم، ستجدون أنكم بشر قبل كل شيء، حتى جاءكم النداء «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (الحجرات: 13).

لقراءة المقالات السابقة

قاسم حسين
kassim.hussain@alwasatnews.com

حقوقيون عرب وبحرينيون

□ كما برزت في الربيع العربي حركةٌ حقوقيةٌ عربيةٌ ناشطةٌ، لعبت دوراً كبيراً في الحراك السياسي، برز برعمٌ آخر في الحراك الذي شهدته البحرين منذ فبراير 2011.

الحركة الحقوقية حظيت بدعم وتعاطف عالمي واسع، فحصل بعضهم على جوائز عالمية، أعلاها جائزة نوبل للسلام التي مُنحت العام 2011 للشابة اليمنية توكل كرمان (وهي أصغر من حاز الجائزة)، وهي كاتبة وشاعرة وناشطة حقوقية، حيث اشتهرت بدفاعها عن حقوق المرأة، وهي عضو بالشبكة اليمنية لحقوق الإنسان، ومنظمة الشفافية الدولية.

حركة الحقوق العربية ليست مفصولةً عن هذا المحيط العالمي، ولم تعد يتيمةً كما كان الحال مع الجيل السابق الذي اشتغل بالنشاط الحقوقي وكان له فضل التأسيس. فهذا الجيل شقّ طريقه للعمل، ترفده إمكانات إعلامية كبيرة، وتطورات سياسية تضخ بالمزيد من الوقائع والأحداث والانتهاكات التي تضاعفت مع الربيع العربي.

في البحرين، أدى الجيل المؤسس دوراً خلال السنوات الماضية، في الاجتماعات والمؤتمرات وتوثيق التقارير السنوية، وفشلت كل محاولاته في إقناع الدولة بتبني شكل مخفّف من العدالة الانتقالية، لتجاوز سنوات الجمر من السبعينيات حتى التسعينيات. وحين بدأ حراك فبراير كان الجيل المؤسس وصل إلى مرحلة التقاعد بعدما بذل من جهود كبيرة (سلمان كمال الدين، عبدالنبي العكري، سبيكة النجار، عيسى الغايب... وآخرون بعضهم استمر بالعمل وبعضهم تغيّرت به السبل). وكانت «الجمعية البحرينية» تعرّضت إلى حالةٍ من الحصار الطويل والحرب الإعلامية الشعواء المتواصلة لأعوام، من أجل إضعافها وتشويهها في أعين الرأي العام، وزاد عليها «مركز البحرين» بالحلّ.

في التجربة البحرينية، دفع الحراك الجديد بدماء جديدة للعمل، بعضهم من الحقوقيين الشباب، وبعضهم محامون ومحاميات، وبعضهم من ضحايا الانتهاكات الجديدة، من الأطباء والمثقفين والصحافيين والأكاديميين الذين طالتهم الإجراءات التعسفية من اعتقال وسجن وتعذيب وفصل من العمل، بسبب مشاركةٍ في مسيرة سلمية أو اعتصام أو توقيع على بيان، وما تلتها من ملاحقات أمنية وإجراءات قاسية.

وكما صعدت الحركة الحقوقية العربية العام 2011، شهدت الساحة البحرينية بروز الحركة الحقوقية في البحرين، وحظيت بتعاطف كبيرٍ من المجتمع الدولي، وحازت صدقيةً عاليةً لدى منظمات حقوق الإنسان الدولية، لما تتمتّع به تقاريرها ومعلوماتها من دقة رصدٍ وصدق وتوثيق بالصوت والصورة. وهكذا نال عددٌ من الحقوقيين الجدد جوائز عالمية تقديراً لجهودهم التي ينظر إليها في الدول الديمقراطية باعتبارها امتداداً لحركة الحقوق المدنية، والنضال الإنساني السلمي من أجل عالمٍ خالٍ من الظلم والتمييز وإرساء حقوق الإنسان.

الحركة الحقوقية في البحرين شهدت صعوداً كبيراً – كنظيرتها في الدول العربية الأخرى – في موازاة الحراك السياسي الشعبي، ولكنها انتهت إلى واقع أشد، بينما انتهت النسخ المصرية والتونسية واليمنية إلى حال أفضل من الاستقرار والأمان. فأبرز اسمين من الناشطين الحقوقيين (عبدالهادي الخواجة ونبيل رجب) يقضيان عقوبةً بالسجن، بينما يتعرض آخرون، إلى ملاحقاتٍ قضائيةٍ، ويخضعون لفتراتٍ مختلفةٍ من الاحتجاز في السجن تمتد إلى أسابيع، وتوجّه لهم تهمٌ بالتجمهر أو التواجد في أماكن المسيرات والتجمعات، كما حدث ليوسف المحافظة الذي حاول دخول قرية العكر أثناء حصارها في نوفمبر الماضي. وهو ما يعتبره البعض عقاباً، بينما تعتبره السلطة تحدياً، فيما يعتبره الحقوقيون من صلب عملهم في الرصد والتوثيق.

لقراءة المقالات السابقة

جولة في مواقع أثرية

سوسن دهنيم
sawsan.dahneem@alwasatnews.com

□ لم تكن مقررة تلك الجولة التي قمت بها لبعض المواقع الأثرية الموجودة في قرى الشمالية إذ كان عليّ أن أقضي ساعة انتظار لأمر طارئ، قررت أن استثمرها في التجول في هذه القرى التي لا أعرف معالمها ومميزاتها.

الموقع الأول الذي أخذتني له السيارة كان موقعاً كُتِبَ على لافتة موضوعة على سوره الشبكي الخارجي: «عين أم السجور»، لم أسمع بهذه العين قبل هذا اليوم لتقصير مني في القراءة عن آثار بلادي، لكنني قرّرت التوقف وسؤال الحارس عن إمكانية الدخول؛ إذ لم أعرف أن ذلك مسموح به.

المساحة الكبيرة التي خُصّصت للمكان تعطيك انطباعاً باهتمام وزارة الثقافة به ولو أنه جاء متأخراً، إذ لم يتبقَ من معالم العين إلا القليل الذي قاوم الاندثار والإهمال.

شعرت وأنا أمشي بين ما تبقى من العين بالنساء اللائي كن يحملن المياه على ظهورهن في زمن كانت به المرأة شريكةً للرجل في تدبير احتياجات المنزل، ولم تكن تتعب أو تكل من القيام بأقل مجهود بدني أو نفسي.

كانت قصص التراث حاضرةً في ذاكرتي وأنني أعيش زمناً غير هذا... كأنني كنت إحداهن أبحث عن طريق يوصلني لمنبع الماء كي أدلو بدلوي وأملأ قربتي بالمياه، لكنني ملأتها بتاريخ وعراقة لمنطقة من مناطق موطني.

الموقع الثاني كان «معبد باربار»، المعبد الذي كان يبدأ بأعمدة كثيرة بحسب بعض من شاهدوها قبل أن يزيلها الزمن أو البشر، ولم يبقَ منها إلا عمود يتيم في منتصف الساحة الخارجية للمعبد. تشعر وأنت تتجول على وبين ما تبقى منه من آثار أنك تعيش في زمن قديم كانت حلقات التعليم والوعظ تقام في ساحات مفتوحة يجلس مرتادوها على الحصى أو الأرض ليستمعوا إلى ما يقال بها.

البناء القديم الذي تهالك قبل أن تطاله يد الاهتمام كان جزءاً من تاريخ عريق لا يمكن إغفاله، والمساحة التي تحيط به من النخيل والمزارع أضفت عليه جمالاً آخر.

الحارس الذي كان يجلس على كرسيه بانتظار الزوار، بدا لي وكأنه أحد السدنة فيما تخيّلتُ أصوات التهجّد والتعبّد في المكان الذي رأيت. لكن تساؤلاً ملحاً كان يغزوني كلما توغلت أكثر في خيالاتي وفيما أرى أمامي: ماذا لو اهتمت البلاد بآثارها قبل أن تهلكها يد العبث والزمن؟ وماذا لو اهتمت الحكومة أكثر بهذه المواقع وطوّرت بها؟ على رغم أن الحارس أخذني إلى بناء جديد في بداية الموقع قيد الإنشاء قال إنه متحف سيضم الكثير حول المعبد.

الحارس هذا كان يعرف بعض المعلومات عن المعبد، وكان يحاول إفادتي بها وهو ما جعلني أتساءل أيضاً: ماذا لو خصّصت وزارة الثقافة حارساً لكل موقع أثري في مملكة البحرين على علم بكل المعلومات عن الموقع المخصص لحراسته بعد أن يعطى بعض التدريبات عن كيفية التواصل مع الزوار والطرق المثلى لتعريفهم بالتاريخ والمكان؟ بالطبع ستكون الزيارة أجدى وأجمل، وسيحرص الكثيرون على زيارة المواقع الأثرية هذه للتعرف على تاريخ هذه الأرض وحضارتها.

لم أكتفِ بما رأيتُ من معالم؛ بل واصلت المسير إلى موقع طالما تساءلت وأنا أطوف به عن بعد عن ماهيته، كان المعلم الأخير هو موقع الدراز الأثري الذي يقع على الشارع العام بالقرب من أحد مداخل الدراز. هذا المكان لم يحظَ بوجود لافتة تعرّف به، فلم أعرف ما يكون، ولم يحظ بحارس أو بوابة؛ إذ كان مسوّراً بسورٍ شبكي، وكان بالقرب منه لافتة توضح أن أخذ أي ترابٍ أو حصى من الموقع يعتبر مخالفاً للقانون.

هناك الكثير من المواقع الأثرية في البحرين لا يعرف عنها العامة من غير المتخصصين في الآثار شيئاً بانتظار من يعرف بها ومن يهتم بها أكثر لتكون واجهة سياحية تعرف المواطنين قبل السواح بعراقة هذه الأرض وجمال تاريخها.

لقراءة المقالات السابقة

ألمسنيه يا عطية

الشيخ محمد الصفار
رجل دين سعودي

□ ما أكثر الكلمات والأحاديث والجمل والكلمات الرنّانة من المسئولين، وهم يتحدثون عن مختلف الشئون والوزارات والاختصاصات والأخلاقيات والروحيات.

المسئولون السياسيون والمسئولون الاجتماعيون – وجهاء مثقفون – والمسئولون الدينيون – خطباء علماء موجهون – لهم جميعاً كلمات وتوجيهات وخطب ووعود، لا تجد لها واقعاً قائماً حقيقياً بمقدار ما لها من صخب وصوت مضخم.

كنت في زيارة صديق لي عاد للتو من زيارة الأربعين، وكان متأثراً ومتعلقاً بالإمام الحسين (ع)، وكان يكرّر ليس من يحيي المناسبة هنا كمن يقترب من كربلاء، وليس كمن يرى القبة، وليس كمن يصل إلى الضريح، فهناك شعور مختلف تماماً.

خرجت من عنده وأنا أفكر في أثر الزيارة عليه، وسرح بي خيالي في تاريخ الواقعة في أول زيارة الأربعين، حيث وصل الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري، وكان ضريراً، ومعه عطية العوفي، وبعد أن اغتسل في النهر وتطيّب، طلب من عطية أن يأخذه إلى القبر، وحين وصله قال له يا عطية ألمِسْنِيه (ضع يدي على القبر)، فلما ألمسه إياه خرّ مغشياً عليه.

كنت أفكّر في أثر الأمور المحسوسة حتى في القضايا الدينية والمعنوية، التي لا يشترط فيها الحضور، لأن الإيمان بها قلبي، ومع ذلك فإن تمازج الإيمان الداخلي مع أي محسوس وملموس خارجي له يكون ذا أثر كبير، ولعل في قوله تعالى: «وَإِذ قال إبراهيمُ ربِّ أَرِنِي كَيف تُحْيِي الموتَى قَال أَوَلَمْ تُؤْمِن قَال بلَى ولَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» (البقرة: 260)، إشارة إلى ذلك.

كل الخطب والكلمات والتوجيهات والانتصارات الوهمية لا تعطي أثرها في الخارج ما لم تتحوّل إلى ملموس ومحسوس، وخصوصاً في الأمور التي من طبيعتها التجسد والكون في الخارج، وحضور أعيانها مشخصةً ملموسةً محسوسة. وحين يتحدث السياسيون الرسميون عن الأوضاع المستتبة والأمن المتفشي، والراحة النفسية لمواطنيهم المساكين، فلا نطالب أحداً منهم سوى بألمسنيه يا عطية.

وحين نسمع الثرثرة والهراء في بلادنا العربية عن حقوق الإنسان، وتمتعه بكل ما يتمتع به المواطن في أرقى دول العالم من حقوق، هذا الحديث المتواصل والمكرور الذي يوصل أحياناً إلى حد الاشمئزاز، فإن كل ما نطلبه هو ألمسنيه يا عطية.

الدينيون وما أدراك ما الدينيون أو المتديّنون، قمة في الوعظ والإرشاد والتوجيه والتقوى والسمو الروحي، ولكن حين يختلفون أو تتضارب مصالحهم وتوجهاتهم، أو آراؤهم في أية مسألة من المسائل، فسترى نفسك مضطراً للصراخ في وجوههم ألمسنيه يا عطية.

حين يتحدّث أحدنا نحن أبناء هذا الصنف عن الأخلاق، ونأتي بقصص وذكريات عن هذا العالم وذاك ممن وصلوا إلى دار الحق، نُخيّل للناس أننا على هذا الطريق ولا نحيد عنه أبداً، ولكن يصعب على عطية أن يلمسهم شيئاً من أخلاقنا، إلا من نفر قليل ممن رحم ربك.

تعال لموازنات دولنا المليارية المذهلة، واسمع أحاديث المسئولين الرسميين من دون استثناء حولها، لكن أكثر من كذا مليون (عطية) مواطن لا يمكنهم أن يلمسوا منها سوى التضخم، وزيادة الأسعار، وغلاء الإيجارات، وأعداد مئوية مرتفعة لا تجد مسكناً ولا مأوى تملكه.

عطية سيتعب ويجهد ولن يجد في البنية التحتية ما يقدّمه للناس، فالصحة والتعليم والوزارات الخدمية أو التخطيطية، كلها في حال يرثى لها، الشيء الوفير الذي يمكن لعطية أن يتلمس الكثير منه، وأن يلمسه للناس هو الفساد المتفشي، والموازنات التي تذهب سدى بسوء استخدامها، وتوجيهها لوجهات لا تمت إلى البلاد والعباد بصلة، وما على عطية سوى الحصول على أرقام الحسابات الخاصة.

لقراءة المقالات السابقة